

دموع على حائط مبكاي

نبذة الغف المكلوبي

وتنويعات على لحن عظيم

صدره لصراخنا واحتجاجنا وتجاربنا الساذجة التي
ضاقت بها بلادنا؟ هل كانت الأ المهجر والمهجأ للشائر
والمعذب والبكي؟

في دمك صوت الندابة القديمة ، شجن المفني
الاعمى على القيثار ، أحزان ايزيس الثكلي وأحفادها الذين
تترنم بهم الرباب والمواويل . أهو القبر والتابوت الفرعوني
الذي لم تستطع الفكاك منه (من عجب انه يتسع للنكات
والضحكات ، ان السياح يقصدون طيبة ويففلون عن
القبور والتوابيت الحية !) أهو سجن العمر الموروث ؟
او كانت كل كتاباتك لظما في ماتمك الآزلي - نصبتسه
« معات » الرية لكن نسيته ؟ ها أنت ذا بعد آلاف الصفحات
وآلاف الليالي الوحيدة تدرك فجأة انك لم تخرج من
التابوت ، لم تستطع ان ترحزحه لان الأجداد صنعوا منه
ضلوعك . تفتح عينيك فجأة - بعد فوات العمر - فترى
الكتب تحيط بك ، سور شائك غرسته دون ان تدري
فحرم عليك بستان الحياة . صورت لك الاوهام ان الحياة
كتاب وان الكتاب حياة ، لم تدر الا وقد أصبحت مجلدا
يمشي على قدمين ، ينطح صخر الواقع والناس بأحلام
ليست أحلامه . عند أول ريح تطايرت الاوراق . عند
أول صدمة غرقت كما غرق تراث أجدادك في مياه الفرات
والبحر الابيض . فتشتت عن طوق النجاة . آه لو كنت
كتبته ! كتابك انت لا ما نقلته عن الآخرين . لربما كان

قلت للصوت الصديق الذي دعاني للمشاركة في
العيد الفضي ل « الآداب » (١) : أنت توقظني من نومة
أهل الكهف : منذ سنتين وأنا غارق في بحر السواد
والاكتئاب . منذ سنين وأنا جثة تأكل وتمشي وتنام
وتضحك أحيانا وتثرثر بالحكمة ، تنكر الصوت الخارج
منها وتضع في المتاهات بحثا عن هويتها . طمأنني وأنج
علي . قلت ساكتب بكائية ، وسأرثي نفسي وشبابي !
سأفعل ما فعل الشاعر العربي الوحيد الذي نعى نفسه
- ذكرت اسمه ونسيته الآن ! - قال افعل . قلت أليست
قلة ذوق ان انصب ماتما وسط أفراح العرس ؟ هل كتب
علينا ان نبكي طول العمر ؟ وفكرت ان أقيم حائط مبكي
عريبا ادعو اليه الاحباب . فكرت ان أهتف بالقراء : دعونا
نبكي فنحن أولى من أعدائنا بالبكاء . فدموعنا على الأقل
ليست دموع التماسيح ، وذنوبنا في حق انفسنا أثقل من
ذنوبهم عبر التاريخ . لكنني وجدت من الفرور ان ادعو
غيري للبكاء ، وأن يفتر لي احد ان أسقط ذنوبي عليه ،
او أعمم اتهام الذات - وهو في حد نفسه لا يخلو من
الزهو والتبرير - على عشرات من جيلي أنا أول من يجهم
ويقدر انجازاتهم ولا يقارن نفسه حتى بالتراب الذي
تدوسه أقدامهم . فلأذرف وحدي دمع العين على حائط
مبكاي . وليففر ثرثرتي القراء . وليتسع صدر « الآداب »
لاعتراف جاء بعد خمسة وعشرين عاما ، هي في النهاية
عمري المسفوح في دم القلم . وهل كانت طسوال هذه
السنين الا حائط مبكانا الذي تلقى بأحضان دموعنا ، وفتح

اغاثك أو خفّ اليك كقارب نجدة . يا نوح العجوز !
لا عاصم اليوم من الطوفان . يا نوح ، لم لم تصنع
سفينتك ؟ دموعك الآن هي الطوفان . فالحجّ قيل فوات
الوقت الي حائط مبيك . لكن حاول أن تبكي بدموعك
أنت . أن تتعري في الريح أمام المكتبة المحترقة . فلعلك
يوماً تتطهر . أقم الحائط وابك عليه . .

« الناس جميعاً فرحون ، كأنهم يشاركون في وليمة ،
كأنهم ذاهبون الي مهرجان الربيع . أنا وحدي أرقد في
سكون ، أشبه بطفل صغير ، لم يتسم مرة في حياته .
أنا وحدي متعب ، حزين القلب ، مضيق كاني بلا هدف ،
أنا وحدي غير الآخرين » - سطور من كتاب ترجمته منذ
سنتين (٢) . أهناك شيء يصدق عليك مثلها ؟ الاكتئاب
كان قدرك . أمك المسكينة كانت تسميك مالك الحزين .
كنت لا تبكي وتنشج الا في الافراح . أيها السم الاسود ،
من الذي خلطك بدمي ؟ أهذا هو الذي قربك من الشعر ؟
عرفت مبكراً أنك أفلست فيه . أهذا هو الذي جعله
يلازمك كظلك فأخذت تنقله الي لفتك ؟ سوّدت عنه مئات
الصفحات . تجولت في جزره البعيدة من سافو السي
اليوت (في العام الماضي منحوك الجائزة - فضلاً منهم
وكرماً - فأغرقتك في مزيد من الاكتئاب :) يا اوديسيوس
الخائب . سدى كانت مغامراتك . الحوريات كذبت عليك .
الرحلة كانت مضيعة للعمر . الاوديسة كانت فخاك .
غنيت أغاني الغير . وعزفت على قيثارة لم يصنع لك .
هل تعجب بعد وصولك أيتاكا أن تنكر « بنيلوبه » تك ؟
أن تهتف بك : لا لست الزوج ! والسجادة لم تصنع لك .
لم انفق فيها العمر لكي أنتظرك . ها هي ذي تطردك الآن .
وعلى مرأى من كل الخطاب الجشعين وأهلك ومريبتك .
هل كان الاولى بك أن تبقى في زي الشحاذ ، أن تصدق
مع نفسك أنت ؟ طهر نفسك واغسل فكيف . هل يتسع
العمر لرحلتك الاخرى ، رحلتك الحققة ؟! (موضوع
مسرحية بدأتها ولم تتمها . ما أكثر ما بدأت ! ترى لماذا
لم تستمع لصديق عمرك (٣) الذي وجهك لسيف وأبي زيد
وعنترة ؟) لم غربت ؟ لم تبعد دوماً عن نفسك ؟ وعلى
من تلقي الذنب ؟ الطفولة كانت قاسية . الزمن اشتد
عليك . طوفت بكل الآفاق وها أنت تعود : الابن الضال ،
يهرع نحو أبيه ليفرق فيه بدمع التوبة ، لكن الاب ، قد
فقد الذاكرة ونسي الابن . وهو الآن تراب يرقد في حوض
تراب - والابن انتائب يصرخ : لم تتركني ؟ (عنوان رواية
تدور في عقلك منذ سنين . لم لم بدأها بعد ؟) أما كان
الاولى من رحلة الشعر - ضيقت في كتاب واحد عنه
خمس سنين ، حبست شبابك في سجن لا تدخله الا
أوزان الشعر وكلماته ، هل كان الامر يساوي هذا الجهد ؟
أم أنك تهوى دوماً أن تلعب دور ضحية ، حتى لو كان
الجلادون هم الشعراء ؟! هل هي مأساتك وحسدك ؟ أم

سحرت « كيركه » بحارة جيلك في سفن الفن كما
سحرتك ؟ أما كان الاولى من هذه الرحلات أن تعلم أمياً
واحداً ؟ وهل تنسى ان أمك ماتت وهي أمية - تذكر
تعبك أياماً وأسابع لتحفظها أنا اعطيناك الكوتر ! - هل
تنسى ان شقيقتك ما تزالان عاجزتين - كما يقال - عن
تمييز الالف من كوز الذرة ؟ وأين تهرب من كلمة ذلك الذي
زار بلادك (٤) ؟ سارع اليه كهنة الثقافة - وكم انبهرت
مثلهم بكل جديد - فقال ما معناه : لو كنت مكان المثقف
عندكم لاخذت طباشيرة ولوحاً اسود وهرعت الي الريف
لتعليم الأميين . وها هي الهاوية تتسع بين الكاتب والقارئ
ولا تضيق . ونحن نواصل كتابة الرسائل المفتوحة الي
بعضنا . لا تكفّ عن الصراخ من ذنبنا وخجلنا من عار
الامية . ومع ذلك لا نفعل شيئاً . (ابن اتحادات الادباء
لتوجه قوافلنا نحو الريف ؟) هل نعزي أنفسنا بأجيال
أخرى - قد تأتي أو لا تأتي - تتذوق عندئذ أشعارنا
الثرثرة وعبارتنا الرنانة ونظرياتنا المتعالية وقصصنا
ومسرحياتنا التي تفرغ فيها مشاعرنا المذنبه ؟ عزاء
يستحق البكاء ! فابك اذن على حائط مبيك . .

وهبطت الي المتاهة كما هبط تيسوس (يا للاسماء
الصعبة . . لو كنت أدري بترائك لوجدت أسماء أرحم !)
متاهة الحكمة التي ضاعفت حماقتك . . في كل ركن
عجوز أشيب ثرائر . وخيوط المذاهب كثيرة ومعقدة .
تخرج من نسيج عنكبوت لتقع في نسيج عنكبوت . من
طاليس الي هيدجر وانت تقرأ وتتابع . تجعد الجبين
واكفهرت الملامح . والشعر شاب فوق السالفين . وانت
تجسس لكل رأي وتتأثر بكل صوت . تفرق نفسك على
خيزهم الجاف لكي يبلعه الناس . يقولون لك : أنت تكتب
الفلسفة بقلب شاعر . أنت تحولها أدباً . هل يعزوك أم
يجرونك من أنفك كما جرّ فاوست تلاميذه عشر سنين :
سموه الاستاذ وسموه ائدكتور ، فاكشف انه لا يزال هو
الاحمق المسكين ، واننا عن معرفة أي شيء عاجزون !
وها هم يسمونك الاستاذ ، ينادونك حضرتك وسيادتك .
(لكن من يقف جوارك . من يشعر بك) . هناك تجلس
كصنم بوذا المسكين . وبين جدرانك الاربعة أبكم أخرس
كالبوم . ويرونك - حين تناقش أطروحة - في مسوح
الحكماء الملمين . ويثرثر صوت يخرج منك فتنكره حين
تفاجأ به . وتود لو أنك تخرج من جلدك ، تدخل جسداً
آخر - أبهى وأصح - أو أن تجري عريئاً كالمذعور . لكن
الدور يمثل فوق المسرح . سيظل يمثل حتى تنفجر
وتخرج منه الي قبرك أو للنور . (أيتها العين الواسعة
السوداء . تابعت صعودي نحو الواحد وأنا أقرأ افلوطين .
هل أحسست بأنني أتمنى أن ألقى السلم كي أصل اليك ؟)
واكتشف أنك تسورطت . أنت ونحن وهم متورطون .
تورطت في جسد قرض عليك ، في عصر ويئسة لم

تخترهما . يقولون وتصدقهم أحيانا : مصيرك بيدك ، فاقبض عليه ؛ حياتك من صنعك ، فوجه دفتها بنفسك . في هذا الزمن وجدت وهذا الركن من العالم . فواجه الموقف وتحدا المشكلة ! وتدق كلمات التحدي والكفاح وسائر الطبول الضخمة . وحين يجن الليل تقول : أنا مع ذلك في ورطة ! وتناجي نفسك : لو خيرت لكنت اخترت ، أن أصبح شجرة ، أو أقمص قطة ! (فالشجرة تلقي ظلا ، للثاء والحيران ، تعطي خشبا للبردان ، فاكهة أو خبزا أخضر للجوعان - والقطة متوحدة ، متكبرة تعشق سر الانجم والكتمان !) وتكتشف انك ضيعت الخيط . و « أريادنة » لم تمسك بطرفه ولم تنتظرك يوما على باب المناهة .

وتواصل ثرثرتك ودموعك تجري في صمت . والسنة الدراسية على الابواب . ونفسك داخل المناهة تبحث عن حائط مبكاك ..

وحيدا تذهب . وحيدا تجيء . (في الليل ، على فراشي ، طلبت من تحبه نفسي . طلبته فما وجدته) . آلاف الليالي ، مكورا كالجنين في بطن أمك ، تمد أكف الجوع إليه . تتعري ، من يفتيك . يسعل صدرك يتفجر بالرئو ، تتشنج معدتك وأمعأؤك - بالمرض المصري الازلي ! - من ينعطف عليك ، من يطعمك ويسقيك . يا جوعا أبديا للانثى والام ! ومنذ تخطيت الاربعين وأنت تخاف اللصوص - في الظلام تتربص الاقدار . والسماء تمطر الكوارث كل يوم . وصفحة الحوادث قضاء ينزل على الراس مع كل افطار . ضيعت الحبيبة فضاعت الزوجة والابناء والاحفاد ، ضاع الآباء وضاع الاجداد ، ضاع الماضي والحاضر والمستقبل . صرت ترابا ، عدما ، هاوية معتمة في لحظة . لحظة رحت لخطبتها فاتفقد لسانك ، شل القلب ، أطبق فوق الشفتين الموت . (كل سنة أو سنتين تراها صدفة ، في منعطف طريق أو عند عبور شارع - أن ساء حظك لم تر الاظورها ، فانتك عينها السوداوان النافذتان كحد السيف ، اللامعتان كسحر الموت - في يدها طفلاها . كان من الممكن أن يكونا منك . وحين اكتست أسود تقدمت . لكن النجم المنحوس هناك . ونجم الحظ بعيد عنك . تتحسر : آه لو كانت ، لو كنت وكنت وكنت .. وتمضي مسرعا الى مسكنك . تضع المفتاح في الباب . تتحاشى عيون المتطفلين . تطالعك سدود الكتب كحيوانات منقرضة . تتفرس فيك عيون الاموات - الاحياء ، طالت وقدتهم في كهف الورق المصفر ! وتدفن رأسك بين يديك . في بحر الحزن الاسود تفرق سفن العمر . ويوم سلمت عليها - للمرة الاولى أيها الريفي الرومانسي ! - صرت شعاعا ، عصفورا وفراشة . وحفرت التاريخ على الحائط ، ومعه كلمة نيتشه : حب القدر - ما زال الحفر هناك . يشبه

شاهد قبر الغرباء ، في أرض الغربة : « أيها العابر ، قل لمواطنينا في اسبرطة : هنا نرقد مقتولين ، وما زلنا في الموت لوصاياها أوفياء » (٦) . ما أشبهك بنيتشه . كم أحببته : ثورته ، خيبته ، وجنونه . والتسليم . هل نملك الا التسليم ؟ (في أواخر حياته ، بعد أن أطبق عليه ليل الجنون ، لم يعد يعرف أنه نيتشه . تنظر أخته اليه فلا تملك أن تحبس دموعها . ينظر اليها ويقول : لم تبكين ؟ السنا سعداء ؟) واللحظة كانت مسؤولة . لم تتركها تمضي وتفر ؟ لحظة عجز عن تصميم في وجه الحب - الموت . عبرت لن ترجع أبدا . لم تمسكها من خصلات الشعر الذهبي . كانت تدعوك وتبتسم لك : تم أحجمت ؟ وتجيء الموجة بعد الموجة في طوفان الجري وراء الرزق ، وراء الخبز المر ، مغموسا في أوعيبه اللل ، اليأس ، القبح ، الذل . لكن اللحظة لا ترجع أبدا . أهي فكرة ثابتة تنام على فراشها المريح ؟ عزاء للنفس وتبرير ؟ هل تخدع نفسك ؟ تضع الذرع اليراق على جثة فارس ؟ كي تستمتع بالحرية خلف السور الشائك ؟ تتلذذ بيكائك في كهفك ؟ يا للاوهام السهلة ! سهل أن تتهم النفس ، تعذبها ، فالتعذيب شريعة هذا العصر . لكن الفاجعة أمر . والمحنة اكبر من مشكلة الحب . فلکم أحببت وجريت . حاولت ان تكون أبرجوازي الصغير - من يملك أن يخرج من جلده أو يتخلص من ظله ؟ - تقرأ الجريدة وتتابع أخبار النجوم والاغاني الجديدة ، تحرص على مسلسل الاذاعة والتلفزيون ، تتحسر على أيام أخير وتقول مع ذلك : غدا يتحسن كل شيء - لكنك لا تدري كيف ؟ - ومثله وضعت الخاتم في يدها (وضعت مرتين في يدين ، أبرأت ذمتك ككل مواطن صالح يؤمن بالله والوطن) وعندما أردت أن تضع يدها في يدك خلصتها منك . الموعد لم تحضره . كانت مع الآخر ترقص وتأكل من الشجرة المحرمة - على آدم المسكين وحده ! - كنت مملا والكتب مملة . وجه الحكمة لا يلعب مثل وجوه العملات الصعبة . والاخرى كانت اذكي وأمر . داعبت الطفل الراقد فيك وسخرت منه . أخذت منه الذهب المصنوع بعرق العمر . يا من تتلوى في محراب الفكر . أحرق كتبك قبل فوات العمر . اربط ربطة عنقك واسمع آخر اغنية في ما يطلبه المستمعون . واذكر حين يجن الليل ، انك وحدك . وحدك كاله الصمت أو الوحش المجروح المجنون . وحدك تتألم وتموت ، حتى لو كانت في أحضانك ملكة تدمر . واحمل حائط مبكاك الى القبر .

اللحظة ضاعت (هل يتسع العمر لعودتها ؟ هل يرجع دولا ب الزمن السدوار فتظهر لك ، تبتسم كنجم صاف خلف سحب الدمع المر ؟) عبثا تجمع عنها أكوام المعلومات ، تشغل نفسك بالزمن القاسي . ها أنت تحاضر عنها منذ سنين . تهتف أحيانا : ما دام القلب يدق فلا

ومن أنذي حقق نفسه ؟ أين الذي رضي عنها ؟ حتى الذي أنجز الاعمال الكبرى ، في الفن أو الحياة ، هل رضي عن نفسه ؟ وربما قلت لنفسك : حقا لم أتم عملا كبيرا ، ولكن آلاف الصفحات التي كتبتها - يا للذنوب الثقيلة ! - لا تخلو من انفساسك . ترجمت كثيرا وأنكرت نفسك . ليس هذا عطاء ؟ ألم تعش وتجرب كل كلمة وسطر ؟ والأسفاه . الطيبة جنت عليك . (في أيامنا يسميها الكذابون ضعفا ، كما يعدون الرقة عجزا والتوداعة والادب جبنا ..) . البراءة والنقاء ظلماك (وكل ما فعلت أن حاولت البقاء نقيًا أبيض مهما خضت المستنقعات وقذفت بالطين) . فنيت فيما كتبت ونقلت (صادقا تقول : ما أقله وأهون شأنه ! كم كانت هناك أعمال أخرى أجدر وأهم !) حتى أوشكت أن تنقص أرواح الذين شغلت بهم . أسروك حتى كدت تصبح صدى لا صوتا ، ونسخة لا أصلا .

أكانت « شهامة » أداء الواجب ، فريضة لغة نادرة شاءت الصدفة أن تطرق أبواب حضارتها وأدبها . ولم لم تستطع الجمع بين هذا « الواجب » وواجب آخر أكبر منه ؟ أهو ضعف الحيلة ، قلة الهمة ، غياب الطبع ، ذل الخبز اليومي ، لذة الانهيار بالآخر والغير ، غرور التلويح به في وجوه الآخرين ؟ ربي ، ماذا كان الامر ؟ المسألة - كما قيل بحق - نسبية ، والغرور لم يبلغ بك أن تصدق الثناء (في النهاية : ماذا تقوى الكلمة أن تفعل في مجتمع متخلف ؟) والشوكة ما تزال تدميك : لم لم تحقق نفسك أو بعض نفسك ؟ لم لم تستجب للحظة الخلق ؟ لم لم تصبر وتثابر ، وفي أجيال الرواد وأجيال معاصريك وجوه مضيئة تحبها وتسعد بها وتتعلم منها ؟ بالامس فتحت

كراساتك القديمة - كدت تنساها في غبار الادراج ! - طالعت خواتمك وقلبت المشروعات (- عشرات القصص بدأتها ولم تتمها ، مسرحيات وروايات طويلة وقصيرة -) أين كنت ؟ لم جرفك التيار ؟ كم نحن اغنياء بالافكار فقراء في الاعمال (٧) ! يهزون رؤوسهم ويقولون : مترجم حساس وباحث جاد . وتطعن في القلب . وتدور دوامة التدريس . تطحنك الطاحونة (ترى كيف يواجه المحنة من هم أفضل منك وأعلم : جبيرا ابراهيم جبيرا وخلييل حاوي وشكري عيساد وغيرهم وغيرهم ، أم أنك تهول كعادتك وتصارع شبحا لا وجود له الا في رأسك ؟ !) . وفي النهاية لم تقول هذا الكلام ؟ لمن ؟ ألم يكن الاولى أن تصوره في مشاهد ومواقف وشخصيات ؟ أهي الفريزة الموروثة في تعذيب الذات ؟ الا يجدر بك أن تبدأ السير على طريق الثقة والاطمئنان ؟ أتبدل وعدا ؟ أتحاول أن تنزع خيطا من عقدة الصمت ؟ ومن تهمة دموعك على حائط مبكاك ؟

يأس ! فاللحظة فاكهة تنضج في موسمها . حين يحين أو ان النضج . اللحظة - سر الوهيج الخالد نحت تراب الفنانين - تحتاج الشمس ، الريح ، المطر ، سنينا بعد سنين . لا تياس أبدا ، حين تزيد المحنة يأتي المنقذ . (عنوان كتاب بين يديك ، عن افلاطون : هذا المنقذ يخرج من كهفه . يترك كهف الاشباح المسجونين لنور الحق . فمتى يخرج منه ؟ أم خرج ولم يرجع بعد ، ليفك قيود السجن وأكل العيش ؟ !) تهتف بقلوب بكر : عيشوا اللحظة ! لحظة الحسم والقرار والاختيار . لحظة التحدي والفعل الحر . بها يواجه الفرد مصيره ، والشعب قدره . من يخذلها ، من يهرب منها ، من يحجم عنها يبقى مدحورا أبد الدهر . هذا قانون الزمن وسر التاريخ . من يتحدى الموت يعيش ! من يحيا الموت يكون ! كلمات ضخمة . (أحيانا تتحقق ، تتجسد ، تنقذ فردا أو شعبا يفرق . أحمد ربك انك عشت اللحظة . لحظة عبر أخوك الجندي الى سيناء . ما أعظمه وهو « يكرر » صيحة « بدر » . ما أكرمه وهو يلف حزام البارود على جسد أضناه الفقر ، كي ينسف - باللحم الدافئ - درع حديد متكبر . هل تتكرر هذي اللحظة في سيناء وغزة والجولان ؟ هل تنقذنا الا لحظات الحسم الحر ؟ أم نشغل عنها ، نهرب منها ، نستثمرها في شيكات وشعارات ، في المستورد والبيوتيكات ، في أفلام واذاعات ، في الجشع الذاهل عن لحم الجندي المسكين ؟) . أخشى ما أخشاه الآن : أن تأتي اللحظة وأنا احتضر والفظ آخر أنفاسي . أن تتقدم مني كالعدراء وتهمس : هل تذكرنسي ؟ - وأذكر عندئذ أنني نسيت ، اني لم أكن أنا نفسي . يقول قائل يعزيك :

مؤلفات

د . نوال السعداوي

- امرأتان في امرأة
- موت الرجل ألوحيد على الارض
- امرأة عند نقطة الصفر
- قريبا
- اغنية الاطفال الدائرية

منشورات دار الآداب

هذا أو ادعو اليه ؟ كيف يعطي الشيء فاقده ؟ هل يشاركني احد في ألمي ، هل يحسّ به ؟ أهو اعتراف ، ولن ؟ ولماذا اعلنه في هذا المكان ؟ ألم يكن من الممكن ان استغل كرم هذه المجلة في شيء أنفع ، وقد سبق لها ان اكرمتني ورعت بعض بذوري الفقيرة التي اقلب الآن في حصادها المرير ؟ هل اعدتني « البطولة » التي يدعيها الكاتب حين يرتدي مسوح النبي والكاهن والمعلم والرائد ؟ أم أصابني - دون ان ادري - المرض الذي حذرت منه كثيرا حين تكلمت عن التواضع والاعتدال ، حين جعلت مثلي الاعلى ذلك « البطل » الصيني المسكين ، ذلك الحكيم الطاوي الذي حارب معركته وحقق الانتصار ، ثم استقل مركبا خفيا واختفى عن الانظار ، انظار الذين وعدوه بنصف المملكة هدية وانتظروا لتلاخفاله به ؟ رب لم هذا التناقض كله ؟ هل آن ان اخلص نفسي من هذه المناجاة وأعبر بالصورة لغة اتقن ؟ أم يمنعني اكل العيش وضعف الحيلة ؟ أتم يا من ستظهرون بعد الطوفان الذي غرقنا فيه ، فكروا عندما تتحدثون عن ضعفنا ، في الزمن الاسود الذي نجوت منسه ، واذا رايتمونا نيكسي ، فاذكرونا . . . وسامحونا (١١) .

« الضعيف هو الفبي الذي لا يعرف سر قوته ، وأنا لا أحب الاغبياء » (ص ٢٤٨ من هذا العمل الذي امهد لمقال ينشر عنه) . هنا اجد نفسي امام عمل رائع يكشف لي اليوم - وبعد كتابته بحوالي عشرين سنة - عن معاني وايحاءات جديدة ، شأنه شأن كل فن عظيم . كما اجد نفسي امام فنان لم يكف عن التجربة والريادة والمغامرة ، هو بالنسبة لي (وربما لكثير من جيلي ، وان كنت لا احب التعميم ولا التورط في الكلام نيابة عن احد) منارة شامخة ترسل ضوءها الهادي لسفينة المصير العربية ، ولقوارب الموهوبين الصغيرة التي تتلمس طريقها في الظلمات . هذا رجل عرف نفسه ، سر قوته . كجبل المقطم بقي صامدا يطل - بحبه وحزنه الجليل - على المدينة العتيقة المضطربة بالفقراء والمقهورين والمتسولين والفتوات . كتب ما كتب ليمحق الفقر والقدارة والتسول والطفيان ، لتختفي الحشرات والذباب والنبايت . وبشرنا بالسحر - العلم ليخلصنا من قهر الفتوات وكذبهم - والفتوات في كل مكان ، فهل آن ان يخنقوا ؟ - ومن الزيف والبطش والشكل - وهو قي حكايات الرباب كما هو في دعاوى المتبجحين وبلاغيات الهتافين ، حتى كهدنا نحن العرب نصير الفاظا تمشي وتاكل وتنام - هل نقرا هذا العمل من جديد ؟ هل نأمل - بعد ان توفر شيء من الحرية التي تكفل الهدوء والاتزان والموضوعية - ان نحاول قراءته بعيدا عن التشنج والخوف ؟ هل ندرك الآن انه كان رؤية بصيرة لتصحيح الثورة ومحاولة للمزج بين العلم والايمان الذي أصبح الآن كلمة على كل لسان (راجع حديث

رياح الجديد والغريب تعصف . الانبهار بالموذات والمعائب يذهل النفس عن ذاتها (أنت أيضا شاركت فيه . هل تقبل توبتك الآن ؟) . البطولات الزائفة والضحكات الكاذبة وتعليمات كهنة الايديولوجيات « ينبغي ويجب ولا بد » سحقت براعم المواهب المتفتحة وشنتت أوراقها وأرعبت عصارته الحية وسلطت عليها سموم الادانة (بعضها سكت ، بعضها أتجه للمسلسل واكل العيش ، بعضها لاذ من جحيم الضوضاء الى قاعات الدرس ، أفلها نجح وصمد وابدع أعمالا لا يبدعها الا الصبر . .) عشت الزمن الاسود . (عندما يظهر الطاغية الكبير يصبح الجميع طفاة صفارا ، من الحاكم الى الكناس وجندي الشرطة) (٨) لم تعذب ولم تعلق من قدميك ولم تركل أو تظلم على وجهك ، لكن بعض هؤلاء كباتوا اقرب الناس اليك ، وكتبت عن الطفيان (حتى أوشك أن يكون هو اللحن الاساسي في قصصك ومسرحياتك القليلة الشأن) . حتى الدراسات لم تخل - مع الحذر الواجب ! - منه . (لن تنسى لهذه المجلة فضل نشرها لمفالك عن الاحتجاج الذي ضاقت به مجلات بلادك في ذلك الحين) . حاولت - على طريقته الهامسة الحية - أن تواجه الازعاج والضوضاء . كتبت عن « صمت غوته وعن السكينة التي قتلناها فقتلنا معها روح العلم والهدوء والنظر المنزن . كانت الحناجر أقوى من العقل (هناك الآن بصيص أمل في ان كفة العقل والعلم بدأت ترجح . لكن هل اختفت من حياتنا الاصوات العالية والادعاءات المدوية والعنتريات الزائفة ؟ اليس من واجبنا - نحن اكتاب - أن نقاومها ونخمد أنفاسها ؟ يتردد في سمعي الآن صوت بح من الدعوة للعلم ، للفكر المنتج عملا ، للنظر الموضوعي الخالص من اضطراب العواطف وزعيق الشعارات وبريق المطلقات والتعميمات - وبالجملة من الكذب والضوضاء التي كادت تصبح علامة عربية مسجلة (٩) . (والنتيجة : ملايين ملايين اللاجئين والمشردين ، والادعياء والمتبجحين ، والعاطلين والمتسولين . والخطر المحدق بملايين أخرى . والخطر المحدق ان نصبح « كفتاء السيل » - أن تنقرض حضارتنا ، نصبح مجدا فات - هل عرب أتم ، هل عرب أتم ، هل عرب أتم ، هل عرب ...) (١٠) . أعرف انني أسرف في المبالغة ، ان شبح الانقراض - الذي خيم عليّ سنين طويلة وجسمته أمامي قراءات في فلسفة التاريخ - قد بدأ يزول . ولقد عشت - بحمد الله - حتى رأيت مواجهة الصمود في اكتوبر - رمضان ، ولست أبواب الحرية توارب ، والاصوات تردد شعار العلم والايمان (ولا بد من الصبر والعمل المشترك حتى يصبح سلوكا حيا لا مجرد شعار) . لماذا استطرد ؟ الأجد تبريرا ؟ الأفضح ضعفي وعجزنا أنا وكثير من جيلي ؟ أقول للمواهب الشابة : ثابروا على الاعمال الكبيرة ، اصمدوا لمعرفة الذات ، فمعرفة الصبر والصبر على اكتشافها والدفاع عنها في وجه كل ما يشتها هو العبقرية نفسها . ومن أنا حتى أقول

بلده . ومن يستحق التهئة غير هذه الساحة الادبية التي وقفت دائماً تحارب من أجل وحدة العرب وتكافح لتعليمهم وفتح عيونهم على كل ما هو ثوري وانساني وجديد في الفن والفكر والسياسة والاجتماع ؟ ينتظر مني ان اضيف شيئاً من النقد وأملا في المستقبل ؟

ليتها تسمح لي بتحذير وامل : تحذير من الانبهار بالجديد وقد لا يستحق في بعض الاحيان هذا الانبهار ، وامل في المحافظة على رسالتها العربية المجردة الخالصة - التي حافظت عليها بغير شك حتى الآن - وعدم تقديم تنازلات لاتجاهات « ايدولوجية » عارضة سواء جاءت من يمين او يسار ، المزيد من النقد العلمي مهما تكن قسوته - لانه يعبر عن الحب الصادق اكثر مما تعبر عنه المجاملات - التوسع في الاعداد الخاصة عن ادب الاخوة العرب الذين يخجلنا الا نعرف عنهم شيئاً او لا نكاد نعرفهم في ادب الشمال الافريقي والسودان واثمن ودول الخليج ... الخ - بجانب الاعداد الخاصة عن القضايا الحية الملحة (وكم قدمت من اعداد ناجحة) .. الاتجاه الى الاهتمام بنشر الاعمال الحية من تراثنا بأقلام متفتحة حية - فما احوجنا والجيل الشاب من بعدنا لمثل هذه الاعمال على ضوء معاصر وجديد ! - ومن تراث الانسانية كلها من شرق وغرب ، فالعربي في موقفه الراهن في وجه تحديات تكون او لا تكون - في حاجة لمزيد من الوعي والعلم ، اكثر من حاجته لبعض الاسماء البراقة التي اهتمت بها « الآداب » وانطقت الهالات المحيطة بها او اوشكت : (ماركوز على سبيل المثال !) . فلتعش « الآداب » ، وليهنأ صاحبها وقرأؤها ، وليفكروا لصاحب السطور تحيته الدامعة السخيفة !

د. عبد الغفار مكاوي

القاهرة

نجيب محفوظ الاخير في مجلة الدوحة ، العدد ٢٢ ، اكتوبر ١٩٧٧ ، ص ١٣٦ - ١٣٧) . هل نطمح في قدر كاف من الحرية الباطنة التي تسمح للاديب بتناول مادته من التاريخ الديني او الاسطوري فيتصرف فيه كما يشاء له فنه وضميره (والفنان الحق ضمير العالم ، ميزان التاريخ) مثلما يحدث في كل بلاد الله فلا يرتفع اصبع اتهام ولا يجمع رأي ولا يتناول ثرثار ؟ - هذا ما سوف تتكفل به الدراسة الآتية (١٢) ، لعالم الماني يجمع بين النادرين : الحكم الموضوعي النزيبه ، والقلب المحب المتعاطف . وبمثل ما اهدي المقال لهذا الاستاذ الذي كان له - ولا يزال - أكبر الفضل عليّ (علمني الالمانية منذ اكثر من عشرين عاما ، وهبني منحة درست بهسا خمس سنوات في بلاده ، اخذ بيدي في ساحات ادبها وفكرها ، شجعني في ازماتي ، احبني وأحب بلادي وترائي ولغتي حبا لم أجده عند انسان آخر ، دعانا - أخي وصديقي يوسف الشاروني وأنا - في صيف العام الماضي الى برلين - التي يرأس المعهد الاسلامي بها - فأكرمنا كرماً لا نتصوره أو نحلم به) ، واهديه كذلك للمجلة الشجاعة التي اتسع صدرها لابناء جيلي الذين أصبح اكثرهم الآن روادا تتردد اصواتهم المتميزة ، كما اتسع لبعض محاولاتي الساذجة على مدى عشرين سنة أو يزيد . (وأين أجد مجلة تتلقى دموعي وتحمل حائط مبكاي ؟!) .

كان من المفروض أن أقول شيئاً عن الآداب والآداب الأجنبية . لكن الاستطراد يعفني الان من هذا الواجب الاليم . هل يؤذن لي أن أختتم بالتحية والتهئة القلبية ؟ ولكن هذا شيء بديهي . فلن أتجه بهما لغير هذا المنبر الشجاع الذي صاحب آلامنا وأزماتنا ، وصبر على صراخنا وضجيجنا - الشعري والنثري ! - وكان من آثار شجاعته نشر هذا العمل الفني الذي صودر في

أشـارات

القاهرة تحت عنوان « تساؤلات لخدش كبرياء الخساع » ، العدد ١٨١ ، ابريل ١٩٧٦ ، ص ٥٢ - ٦٤ .
(١٢) نشرت الدراسة في مجلة « مراسلات الشرق » ، العدد ١٢ ، دون تاريخ (حواني ١٩٧٥) ، في عدد خاص آهدها الى ذكرى المستشرق أ. آييل نخبة من تلاميذه وأصدقائه ، تحت عنوان « امشاج اسلامية » وصدر ضمن منشورات مركز دراسة مشكلات العالم الاسلامي المعاصر بمدينة بروكسيل . واليك العنوان الاصلي للدراسة وبيانات النشر لترجع لها ان شئت :

1 . Steppat : Gott , die Futuwwât und die Wissenschaft . zu Najib Mahfuz : Aulâd Hâratnâ . in : Melange d'islamologie , dédiés à la memoire de A . Abel par ses Collegues , ses élèves et ses amis , Volume II , Correspondance d'orient No . 13 . Publications du centre pour l'Etude des problèmes du Monde Musulman Contemporain , Bruxelles , P . 375 - 390 .

- (١) هو الصديق الناقد سامي خشبة .
 - (٢) هو كتاب تاو - تي - كنج (الطريق والفضيلة) للحكيم الصيني لاو - تسي .
 - (٣) هو الكاتب الدارس فاروق خورشيد .
 - (٤) هو الفيلسوف سارتر .
 - (٥) نشيد الانشاد ، الاصحاح الثالث .
 - (٦) ابيجرام منسوب الى سيمونينز (من حوالي ٥٥٦ الى حوالي ٤٦٨ ق.م . - شاعر اغريقي من جزيرة كيوس) .
 - (٧) عن قصيدة لهلدلين .
 - (٨) رأي للكواكبي في « طوائف الاستبداد » .
 - (٩) هو صوت أستاذنا زكي نجيب محمود الذي يدعو للتفكير العلمي وحضارة العلم لا حضارة الالفاظ منذ حوالي نصف قرن ، وبخاصة في كتبه الاخيرة .
 - (١٠) عن قصيدة لطفر نواب .
 - (١١) بتصرف عن قصيدة برشت المشهورة : « الى الاجيال المقبلة » .
- وأود الإشارة الى خواطر رائعة لفرسوا باسيلبي نيهني اليها صديقي الفنان ضياء الشرفاوي ، وقد نشرت في مجلة «الكاتب»